النَّداهة

الشـتاء هنا مائل للزرقة، يأكل العظم والبيوت.. ميزان ماء يحني ظهر الناس، رغم الشاي الأحمر وشكائر الفحم. حداءة تقضم الأصابع وغراب يضرب الغلة بالطوب. الريس حسن معجون من صخر، جسده يسد عين الشمس، يعادي الريح، يوشوش الندى على أعواد البوص والأشجار. يشق أرض الموز وجنائن البرتقال، بقامة تعلو أبراج الحمام، يتجاوزها... يسير على الأسفلت، ويترك على أثره جمرًا. وراءه ولده ناجي. وهناك التملية(*) يجلسون أسفل قضبان القطار، يشقون ريقهم بالفول والبصل، والهمسات: أسرار الطوب، كرامات الخراسانة، وعرق يذيب الحديد.

مع ضوء الشـمس، تدخل صبية على رأسـها بلاص من صخر، يليها أرواح تنبت من أرصفة، تعفرها بتراب مبتل. مُسن يحاول جذب الشبان

(*) الفواعلية، رجال يغدون خماصًا ويعودون خماصًا.

لملابس قديمة، يعرضها على حبل مشدود بين عمودي إنارة.. قفص خشبي معلق على صدر فتاة تبيع السمسمية، ورجل يجلس أسفل الأقدام ويلمع المداسات، أمين شرطة يحط على السائقين في موقف السيارات، "عرق سوس، شفا وخمير، بسبعة ونص يا ولاد الكلب".

مطرقة طويلة.. أجنة.. عتلة وشاكوش.. تقف أمام الريس حسن وأمام التملية، محزمة جيدًا ورأسها للسماء.. التملية رجال أقوياء، يجلسون حول صينية الميدان، يأكلون ويشربون وينحلون وبر ريس الأنفار.. والريس حسن يجلس منزويًا، يلتقط همسات الحصى وأنَّات الطوب ودبيب عربة ريس الأنفار. يراها التملية فيتركون رؤوس البصل، يقفز الريس حسن إلى العربة فتهتز الأرض، ومن بعده ناجي. تطلق العربة نفخة عالية، يلتقط الرجال أدواتهم ويهرعون كالجراد؛ يقفزون من كل اتجاه، يبحثون عن موضع آمن قبل أن يرتفع الصندوق الخلفي عاليًا. من أراد أكل العيش لن يقع، قانون البقاء موضوع على يد ريس الأنفار. تبدأ العربة في التحرك وترفع صندوقها عاليًا، فتغربل التملية على الأرض، هناك من ينجو؛ الذين يضعون مطارقهم وسط الحديد، والذين يحزمون أنفسهم في جانب العربة، أولئك هم المصطفون من الريس حسن.. الواقف أعلى العربة ممسكًا بناصيتها وولده، ويده الأخرى ممدودة إليهم.

ضربة الريس حسن يعرفها طوب الأرض، يقف على سور مبني على نصف طوبة في الطابق العاشر.. يمسك المطرقة بقفاز من قماش ورأسه

معصوبة بشال حجازي. يتنقل على السور بقدمين مصبوبتين، وثعبان أزرق مدقوق على الذراع.. وناجي بالجوار مع التملية يأكل الجدران والخرسانة، همست طوبة للريس حسن عن امرأة فاتنة قفزت مع وفاة العندليب، وطوبة حكت عن رجل خاض ثلاثة حروب، فقد فيها قدميه، كان يسمع آهات زوجته في الغرفة المجاورة مع رجل آخر. الطوب يعرف الحكايات، يتوسل الرحمة من الريس حسن، وهو أرحم الناس؛ يطوحها بضربة واحدة.. حد الله بينه وبين طوبة تحمل مسكنًا للنمل، يطرطر عليها ريس الأنفار بالأسفل.. برائحة شعره المختلطة بالزيت الحار وبقايا البراز، فتجذب الهاموش والحشرات إليها..

النملة كبيرة بمؤخرة سوداء، تتشبث بأرجل رفيعة، ينفرج منخار ريس الأنفار مع شلاله الأصفر، يسقطها من طوبة إلى أخرى، تقع فتطفو على بقايا الردم، تتعرج مع الماء بالقرب من قدميه، فيدهسها بحذائه الباتا.

يقفز الريس حسن إلى السلم ويترك ناجي على سقالة خشبية؛ كان محصورًا.. سار بين الحكايات حتى وجد مصنعًا للسيراميك، دخل بقدمه اليسرى إلى دورة المياه.. القاعدة إفرنجية.. أسفلها تاج منقوش.. أسقط نصف سرواله، أشعل سيجارة وصعد على وجهها المغلق.. قرفص على صندوق الطرد.. حيره أمر هذا الكنيف الغريب، لم يعرف ماذا يفعل.. قرر أن يصوب على بلاعة صغيرة في الركن، ثلاثة قطرات صفراء وبعدها اصطدمت رأسه ببلاط الأرضية، واختلط الدم بالبول، والحابل بالنابل،

ولم يعرف التملية سر تأخره إلا مع رسول جاء من المصنع.. الرأس مشقوق من الجانب، والدم حمّر الشـال، واليدان متدليان على ألواح الخشـب.. لا حول ولا قوة.. هوة عميقة.. وعتمة تحاصره.. وولده يلطم في صمت.

على سهم حقل فوق شكارة علف جلست زبيدة وكشفت عن ساقيها. تمسك كورنيش فستانها وتمسح آثار الكحل المالح.. شعيرات ذهبية وجدتها الجدة على صينية الشـاي، التقطتهـا، وأخرجت ورقة الكحل الحامي من جيبها. أمسكت الأم صغيرتها وملأت جفنيها بالكحل، تخبطت الصغيرة في الجدران. لم تصرخ، لم تكن المرة الأولى التي تؤمر فيها الأم بأذية ابنتها، تقول الجدة "الكحل يوسع شرطة العين"، وزبيدة عيناها ضيقتان، تفتحهما نصف فتحة لترى الطريق، إلى حوض الطرمبة، لتغسل عينيها بالماء والبَرَد، وتسير نحو السهم المطل على النهر. وناجي على حمل من البرسيم مجدول كضفائرهـا، يقفز من على الغبيط، يضرب الحـمار على مؤخرته ضربتين، ويبتعد.

شـده عيناها الضيقتان.. كمجذوب، والنهـر ضيق. يحمل زبيدة على الجرف، ويطير الهواء فسـتانها. تحفر الأرض من أجل طعم.. يقترب منها فتحكم قبضتها على الطين.. لا تريد أن يراها أحد.. جلس بجانبها وتتبع دمعة سوداء، ابتلعتها الأرض.. لا يذكر ماذا قال: "أنتِ عروسة المولد"، ثـم نفخ فمه بالهواء، وابتلعـه، وبعدها أخرج برتقالة من أذنها. ضحكت

وخطفتها.. ركضت بين غيطان الغلة، قفزت فوق الأنايات، وعلى سلخة يحدها بطات الكرنب أمسكها.. كان طفلًا هزيلًا، أرفع من عود ذرة وأكثر قـوة من فأس.. اقتلعها من الأرض.. حملها عـلى ظهره وطار بها بعيدًا.. عند مركب صغير أخذها، خلع ملابسـه وقفز في النهر، ارتعشـت زبيدة مـن برودة المـاء، لكنها قفزت وغابت عن الأعين.. سـنوات يبحث عن رضـا أبيها النتن.. يجلس الآن بالقرب مـن عربة الفول، ينزوي في لباس أبيه، بشحمه ولحمه، يرى العربة تتقدم إليهم، فيلتقط أدواته ويجري لاهثًا بين الجموع.. كانت على بعد خطوة؛ بعيدة ومكتظة بالأنفار، ركض تجاه الصندوق، تفادى السيارات الغاضبة، والباعة الذين يرفعون آذانهم. ارتفع صندوق العربة والتملية تشبثوا بها، يغضون الطرف عن ناجي.. رمى العدة داخل العربة.. أعماه عادم السيارة وملأ حلقه بالبلغم، سعل، قفز فأمسك مؤخرة العربة، تزحلقت يداه، رفع جسده وألقاه داخل الصندوق.. تمسك بجانبه، ارتفع الصندوق للأعلى مرة أخرى.. لهث، صدره مليء بالدخان، أحـس بدوار لكنه هبش أرضيـة العربة بأظافره.. تماسـك.. رفصه أحد الساقطين، كاد أن يقع.

النجاة: أن يهجر الحوائط والسـقالات ويقف على السـور مثلما وقف أبوه، أمام أعين التملية وعضلاتهم البارزة، يضرب الجدران بقوة. هو رجل من ظهر رجل، وليس عيل بشـخة. الشال أبيض يسـند رأسه، والمطرقة الطويلة تطير فتات الطوب على الريس، ريس الأنفار. يصعد بصلعة حمراء ويسأل ناجي عن أبيه، فيرد أحد الأنفار "قصدك الخواجة حسن؟" وبكهن

يرد الريس "عيب يا ولد!"، يعلق أحدهم "ما كان يعملها تحت شـجرة يا ريس"، تنهال الضحكات على رأس ناجي، يتدخل آخر "ويمسـح طيزه بورقة منها"، ويتابع ثالث مع الضحكات "أو يفركها بحبة تراب، أو حبة بركة يا ريس!".

جرس هاتف ينقذ ناجي.. لوهلة.. يتعفرت الريس وتركبه الشياطين، ينط على سور ناجي نطة واحدة، يوكزه بأزميله، ويقول "أبوك مطلوق على خلق ربنا، اربطوه!". الريس حسـن هرب من البيت، جلس في الشـارع بالفانلة واللباس، تعارك مع الحجـارة وطوب الأرض.. اعترض طريق الناس ولسعهم على قفاهم.. كان يأكل من القمامة عندما اقتربت زبيدة.. أعطته رغيفًا وكوب شـاي.. سـلم عليها ببشاشـة للمرة الأولى، ثم قبل بياض يدها وشدها، فانقلبت على الأرض، وتعرى من ملابسه. كاد يقفز عليها لولا أن تدخل الناس، سـتروه وأعادوه للبيت، ركضت زبيدة على طول الطريق.. ظل ناجي صامتًـا.. لم يقدر على الرد.. الريس غاضب.. "رد ياض"..

الريس يتوعده:

"اقطعوا عضوه"..

الريس يقسـم بالطـلاق ثلاثة "اخصوه".. شـارت عليه أم ناجي من قبـل أن يربطوه.. شـدد عليها أن تقفل الباب بالمفتـاح.. هرب! كيف؟!

الأسئلة تطحن رأسه والشمس تأكلها، الريس يتوعد والأنفار يضحكون علانية.

الصور تومض: قبلته لزبيدة تحت الماء، علقة ساخنة من أبيه، مركب وعينان مكحلتان، دراجة ركبها بمساعدة والده، غيطان غلة، وجذع شجرة فلقه ببلطة أبيه. ماذا سيفعل ريس الأنفار لزبيدة، سيزوجها لرجل آخر بعد الدبلوم، رجل نتن، لماذا صعد أبوه على صندوق الطرد؟ ستضيع زبيدة من أجل شخة، شخة يا ناس، شخة يا خلق.. "اربطوه"، "ما ترد يا ابن الكلب"، قالها ريس الأنفار.. الريس حسن كلب! صاح أحد الأنفار معترضًا.. فارت الدماء في رأس ناجي، لم يرد، قد يخسر زبيدة، أكل العيش مر والعشق مر.. سكت.. كررها النتن بأزميل حاد، وبضربة واحدة، كما الريس حسن، طوح ناجي السور من تحتهما، وطار الرذاذ مع الهواء والأحلام.